دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 1 ديسمبر 2020
تاريخ القبـــول: 8 مايـــو 2021

مقالة بحثية

في العلاقة بين اللسانيات وعلم الترجمة: تقعيدٌ أم تعقيد؟

نجيب طو ايبية
أستاذ مساعد في تحليل وتقييم الترجمة، المعهد العربي العالي للترجمة، جامعة الدول العربية، الجزائر
touaibianadjib@gmail.com

ملخص

يتطلّع هذا المقال إلى بحث العلاقة بين اللسانيات والترجمة في ظل استمرار الجدل حول الصلة بينهما وتأثير ذلك على تقدم الحقلين اتصالًا أو انفصالًا، ويهدف المقال إلى تجاوز إشكالية انتساب الترجمة إلى اللسانيات من عدمها، وإلى حصر المواصفات الواجب توفرها حتّى تكون العلاقة بينهما مثمرة. ويطرح إمكانية رسم خريطة تخصص جديدة لحقل الترجمة بالاعتماد على مقاربة عابرةً للتخصصات هي «شعرية الفعل الترجمي» لهنري ميشونيك، وهي رؤيةٌ شاملة برهنت أنّ لبّ الإشكال لا يتعلّق بمحدودية اللسانيات، وإنّما مردّه ما أصاب «لسانيات سوسير» من تحريفٍ تحت تأثير النزعة البنيوية. حاول المقال أن ينفتح على كافة الرؤى مفترضًا أن المخرج من الجدال المحتدم يكمن في اعتبار الترجمة علمًا متقاطعًا؛ لأنّ ما يهُم هو فعالية النظرية الّتي يستند عليها هذا العلم وقدرتها على إدراك كُنه الترجمة وتطوير تعليمها.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، علم الترجمة، البنيوية، ميشونيك، شعرية الفعل الترجمي

للاقتباس: طوايبية، نجيب، «في العلاقة بين اللسانيات وعلم الترجمة: تقعيدٌ أم تعقيد؟»، **مجلة تجسير**، المجلد الثالث، العدد 1، 2021

https://doi.org/10.29117/tis.2021.0058

© 2021، طوايبية، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

OPEN ACCESS
Submitted: 1 December 2020
Accepted: 8 May 2021

Research Article

Harmony and Tension between Linguistics and Translation

Najib Touaibia

Assistant Professor of Analysis and Evaluation of Translation, Higher Arab Institute of Translation, League of Arab States, Algeria
touaibianadjib@gmail.com

Abstract

This paper aims to go beyond whether translation belongs to linguistics by determining the essential characteristics that should exist to make this relationship more fruitful. We question the possibility of a new translation field away from the traditional methodologies. The research uses a transdisciplinary approach and the «poetics of translating» of Henry Meschonnic. We emphasize the importance of learning from the general linguistic theories. We propose that translation can be a cross-cutting science. The effectiveness of the theory at both levels; the understanding of translation and teaching development plays a significant role.

Keywords: Linguistics; Translation science; Structuralism; Meschonnic; Poetics of translating

Cite this article as: Touaibia N., "Harmony and Tension between Linguistics and Translation", *Tajseer*, Volume 3, Issue 1, 2021

https://doi.org/10.29117/tis.2021.0058

© 2021, Touaibia N., licensee QU Press. This article is published under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0), which permits non-commercial use of the material, appropriate credit, and indication if changes in the material were made. You can copy and redistribute the material in any medium or format as well as remix, transform, and build upon the material, provided the original work is properly cited..

مقدمة

لا جدال في أنّ التلاقح بين مختلف العلوم وكسر القيود المنهجية الصارمة الّتي تحصر الباحث في نطاق تخصّصه قد غدا سمة بارزة تميّز الإنتاج المعرفي في عصرنا هذا. فالمقاربات العابرة للتخصّصات (Transdisciplinary approaches) صارت توجهًا مرغوبًا؛ نظرًا لقدرتها على استحداث أدوات بحثٍ ومناهج تمكّن من الوصول إلى أجوبةٍ جديدة بعد انسداد أفق البحث أمام عددٍ من الإشكاليات بسبب الاستغلاق المنهجي. ولا غَرو في أن تكون اللسانيات من أكثر العلوم انفتاحًا وتأثيرًا في غيرها من حقول المعرفة، ذلك لأنّ موضوعها هو اللّغة، واللّغة هي قالب الأفكار والمفاهيم جميعها. فأصبحت، أي اللسانيات، بفروعها وتشعباتها، مثل الروافد الّتي تُغذي نهر الإنسانيات فتزيده وفرةً وغزارة.

غير أنّ علاقتها بـ «علم الترجمة» لا تزال موضوع استشكالٍ وبحث، وقد تعمّدنا وضع المصطلح بين معقوفين لأنّ الوضعية الإبستمولوجية لهذا «العلم» ما زالت غامضةً وضعيفة. فهل اللسانيات بغزارة تدفقها قد غمرت الترجمة وهيمنت على نظرياتها؟ أم أنّها على الضفة تقف لتُراقب جموحها وجنوحها؟

منذ أولى المحاولات الرامية إلى تأسيس نظريةٍ للترجمة بدا جليًّا ارتباطها الوثيق باللسانيات. ارتباطٌ حمل بعض المنظّرين إلى إبقائها مبحثًا تطبيقيًا يجب ألاّ ينفصل البتة عن البحث في اللسان (مثل كاتفورد، ونايدا)[1]. بينما راح البعض الآخر يجتهد في التأصيل لنظرية الترجمة ضمن منهجٍ مستقل يعتمد على علومٍ مختلفة (مثل رينيه لادميرال، ماري سنيل هورنبي، سوزان باسنت)[2]. بيد أنّ العلاقة بين اللسانيات والترجمة ليست بهذا الوضوح حتّى نحصرها بين حدّين. أي بين كوْن اللسانيات المقاربةَ الأساس القادرة على بحث مجمل قضايا الترجمة، أو كونها مقاربةً من ضمن مقارباتٍ أخرى يُستعان بها للتأسيس لنظرية الترجمة. فقد بلغ التعصب لـ «علم الترجمة» ببعض المنظّرين إلى بتر علاقته باللسانيات تمامًا، بينما أقرّ غيرهم العلاقة، مع الاعتقاد بأنّ الترجمة مستقلةٌ بموضوعها. ثمّ يزداد التعقيد عندما نجد غموضًا في بعض الأطروحات يتأرجّح بين الفصل والوصل، مثل ذلك الّذي نلحظه عند جورج مونان مثلًا[3].

قد ينزع البعض إلى اعتبار هذا الجدل عقيمًا، لا سيما في ظلّ التقدم الّذي تحقّقه كلٌّ من اللسانيات والترجمة اتصالًا أو انفصالًا. لكنّ بحث طبيعة العلاقة بينهما يُعدّ من الأهمية بمكان باعتباره ذا أثرٍ على مناهج البحث في قضايا الترجمة واللسان على حدٍّ سواء، وعلى ضبط أدوات البحث، وفحص صحة النتائج ومصداقيتها، ثمّ استشراف مستقبل العلاقة بينهما وتأثيراتها على تطورهما.

إنّنا لا نروم في هذا البحث أن نكرّر أقوال المنظّرين ونعيد تصنيفها، وإنّما المبتغى هنا هو تجاوز إشكالية انتساب الترجمة إلى اللسانيات من عدمها، إلى تحديد طبيعة العلاقة بينهما والمواصفات والمعايير الواجب توفّرها حتى تكون هذه العلاقة مثمرةً وعملية. والهدف هو البحث عن حلولٍ جديدة على ضوء المقاربات المرتكزة على تداخل التخصصات، أو النظريات الشمولية مثل مقاربة هنري ميشونيك[4] الّتي ترى في الترجمة مختبرًا للسانيات.

توطئةً لطرح السؤال المحوري الّذي سيقودنا في هذا البحث، نقول: لقد أصبح النقاش حول إبستمولوجية «علم الترجمة» عند البعض كالبحث في نسب طفلٍ غير شرعي؛ يُنسب أحيانًا إلى نظرية الأدب، وأحيانًا إلى عائلة اللسانيات، ثمّ نختلف حول أيّ فردٍ من هذه العائلة هو الأب البيولوجي للترجمة، أهي اللسانيات المقارنة، أم التطبيقية، أم التقابلية...؟

ضمن هذا الجو المشحون بالجدل نتساءل: ما السبب في الإبهام الّذي يشوب علاقة اللسانيات بالترجمة؟ هل من

1 - J.C Catford, Eugene Nida.

2 - René Ladmiral, Mary Snell Hornby,Susan Bassnett.

3 - See, Maurice Pergnier, « Traduction et linguistique: sur quelques malentendus », *La linguistique*, vol. 40, no. 1 (2004), pp. 15-24.

4 - Henri Meschonnic.

سبيلٍ إلى صياغة مقاربةٍ أو نظريةٍ شمولية تمكّننا من فهم وتوضيح هذه العلاقة؟ كيف نجعل منها علاقةً مثمرة تفيد في تقدّم الحقلين معًا؟ هل يمكن رسم خريطة تخصّصٍ جديدة لـ «علم الترجمة» بعيدًا عن الاستغلاق المنهجي؟

أولًا: في البدء كانت اللسانيات

إنّ البحث في طبيعة العلاقة الّتي تربط اللسانيات بالترجمة يستلزم الإلمام بكافة المستويات والسياقات الّتي برزت ونمت فيها هذه العلاقة، ثمّ دراسة مختلف النتائج الّتي تمخّضت عنها. لذا، كان من الطبيعي أن ينطلق هذا النظر من استعراض أهم المقاربات اللسانية الّتي عالجت الترجمة حتى يسهل علينا مناقشة مخرجاتها. لكنّنا لن ننظر فيها بعين المؤرّخ، أو الموثّق لتطور الرؤى واختلافها، ولن نستفيض في شرحها، وإنّما سنقتصر على التعريف بها على نحوٍ مختصر مع التركيز على أسسها؛ لنبحث فيما بعد في أسباب محدوديتها وعدم قدرتها على حسم الجدل بشأن منهجية البحث في الترجمة ومدى ارتباطها بعلوم اللسان.

1 - مقاربة فيني وداربلني (الأسلوبية المقارنة):

تعدّ الأسلوبية المقارنة من أولى المقاربات معالجةً لقضايا الترجمة، ولعلّها أشهرها؛ حيث لاقت استحسانًا واهتمامًا كبيرين بعد نشر جان بول فيني وجان داربلني سنة 1958 كتابهما المعنون: «الأسلوبية المقارنة للفرنسية والإنجليزية. منهجيةٌ للترجمة». لم يُخفِ المؤلفان هدفهما الرامي إلى صياغة نظريةٍ للترجمة ترتكز على اللسانيات، فهما يقولان في ذلك: «إنّنا عندما نحلّل الظواهر اللّغوية بالطريقة الّتي شرحناها آنفًا؛ سننتهي إلى نظريةٍ للترجمة ترتكز على البنية اللسانية ونفسية الأفراد المتكلّمين»[5]. ومن أهم ما تميّزت به هذه المقاربة، صوغها سبعة أساليب للترجمة؛ منها المباشرة: الاقتراض، والمحاكاة، والترجمة الحرفية، وغير المباشرة وهي: الإبدال، والتطويع، والتكافؤ، والتصرف.

سنسوق هنا ثلاثة أمثلةٍ عن هذه الأساليب وهي: «الاقتراض»، و«التصرف»، و«التكافؤ»، وقد اخترناها لأنّها تُعبّر بدقة عن النسق العام الّذي تقوم عليه المقاربة، كما أنّها ستفيدنا فيما بعد في مناقشتها ونقدها. يُعرّف فيني وداربلني «الاقتراض» بأنّه كلمةٌ تُقترض من لغةٍ أخرى دون ترجمتها، ويسوقان أمثلة عن ذلك بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية، مثل الكلمات الفرنسية suspense (التشويق)، fuselage (هيكل)، وchef (رئيس الطهاة) المستخدمة في الإنجليزية، أو كلمة bulldozer (جرافة) المستخدمة في الفرنسية:

"Mot qu'une langue emprunte à une autre sans le traduire. Ex.:»suspense», «bulldozer» en français ; «fuselage», «chef» en anglais"[6].

يمكن أن نضرب أمثلةً عديدة عن هذا الأسلوب في اللّغة العربية، مثل: الدراما، التراجيديا، أيديولوجيا... والاقتراض حلٌّ أخير يلجأ إليه المترجم عندما يُصادفه فراغٌ معجمي أثناء ترجمته لمصطلحٍ ما، والسبب في ذلك هو الاختلاف الثقافي بين المجتمعات، أو الهوة العلمية والتكنولوجية، بينما يكون أحيانًا مجرّد خيارٍ يلجأ إليه المترجم على الرغم من وجود مكافئٍ في اللّغة الّتي يُترجم إليها رغبةً منه في ضبط المصطلح أو نقله بما يحمله من إيحاءاتٍ في اللّغة الأصل (Source language).

أمّا أسلوب «التكافؤ» فهو من منظور فيني وداربلني: «اتفاقٌ بين نصّين في وصف الواقعة نفسها بتوظيف وسائل أسلوبية وبنيات مختلفةٍ تمامًا». وهما يسوقان مثالًا لذلك بالاختلاف بين الفرنسي والإنجليزي في التعبير عن الألم؛ حيث يستخدم الأوّل لفظ: «Aie»، بينما يُعبّر الثاني بلفظ: «Ouch»، وهذا نصّ تعريفهما:

5 - Jean-Paul Vinay & Jean Darbelnet, *La stylistique comparée du français et de l'anglais* (Paris: Didier, 1958), p. 26.

6 - ibid, p. 08.

"…Il est possible que deux textes rendent compte d'une même situation en mettant en œuvre des moyens stylistiques et structuraux entièrement différents. Il s'agit alors d'une équivalence. L'exemple classique de l'équivalence est fourni par la réaction de l'amateur qui plante un clou et se tape sur les doigts : s'il est français, il dira: «Aie», s'il est anglais, il dira:»Ouch»"[7].

ثمّ نصل إلى أسلوب «التصرف»، وهو: «حدٌّ أقصى للترجمة لا يُوظَّف إلاّ في الحالات الّتي تكون فيها الوضعية الواردة في الرسالة غير موجودةٍ في اللّغة الوصل (Target language)، فيُصبح لزامًا على المترجم استحداث وضعيةٍ أخرى يعتبرها مكافئةً لها».

"…il s'applique à des cas où la situation à laquelle le message se réfère n'existe pas dans LA, et doit être créée par rapport à une autre situation, que l'on juge équivalente"[8].

تشرح إنعام بيوض هذا الأسلوب على نحوٍ أوسع وأبسط بقولها: «... إنّ التكافؤ في هذه الحالة هو تكافؤٌ في الوضعيات وليس في المعاني أو في التراكيب، فهناك بعض المعطيات الثقافية في اللّغة المتن يصعب نقلها بحذافيرها إلى اللغة المستهدفة، وذلك إمّا بسبب عدم وجودها إطلاقًا في ثقافة اللّغة المنقول إليها، وإما لمنافاتها آداب وتقاليد متكلّمي هذه اللّغة»[9].

ومثال ذلك أن يتوجّه المترجم إلى جمهور بلدٍ ما لا يعرف شعبية كرة القدم، فيستبدل المثال برياضةٍ أخرى محبوبةٍ ومشهورة لديه، مثل الكريكت في الهند، أو كرة الطاولة في الصين.

إنّ أهم ما يسترعي انتباهنا في مقاربة الأسلوبية المقارنة هو انفتاحها على علم النفس واعتمادها المبكّر على تلاقح التخصصات في دراسة الترجمة على الرغم من تصنيفها ضمن المقاربات اللسانية التقليدية. أضف إلى ذلك برهنتها بأنّ الاختلافات بين اللّغات لا تنحصر في المستوى الدلالي والتراكيبي، بل إنّ كلّ لغةٍ تحمل سماتٍ تميّزها عن غيرها وكلّ مجتمع لغوي يعبّر عن أفكاره بطريقة تختلف عن الآخر.

2 - مقاربة رومان جاكوبسون (اللسانيات الوظيفية):

تتناقض وضعية التنازع والتنافر التي آلت إليها العلاقة بين اللسانيات والترجمة مع الجرأة الّتي تميّز بها جاكوبسون، وهو أحد روّاد اللسانيات في القرن العشرين ومؤسّس اللسانيات الوظيفية، حين ذهب إلى اعتبار السعي إلى «تحقيق التكافؤ بين اللّغات مع وجود اختلافٍ بينها، حجر الأساس والإشكالية الرئيسة الّتي تُبنى عليها اللسانيات».

"Equivalence in difference is the cardinal problem of language and the main concern of linguistics"[10].

بيد أنّ التكافؤ الّذي يقصده جاكوبسون لا يقتصر على الترجمة بمفهومها المتعارف عليه (Interlingual translation)، أي النقل من لغةٍ إلى أخرى، وإنّما يشمل أيضًا الترجمة داخل اللّغة (Intralingual translation)، أي التعبير باللّغة نفسها لكن بتوظيف مفرداتٍ مغايرة. ويبني هذا اللساني مقاربته على أساسٍ تقني بحت يتّصل بالوظيفة الّتي تؤديها الترجمة باعتبارها عمليةً تستهدف فك الرموز، وإعادة تشكيلها بالاعتماد على رموزٍ أخرى قد تنتمي إلى اللّغة نفسها، أو إلى لغةٍ مغايرة. ومن هذا المنطلق يصبح مفهوم التكافؤ قضيةً محورية يجب أن تكون أساسًا للبحث في اللّغة، بل إنّها انقلبت عند جاكوبسون إلى مصدرٍ للتساؤل حول ماهية الترجمة وحتّى حول إمكانية تحقّقها بسبب استحالة تحقيق التكافؤ التّام بين

7 - ibid, p. 52.

8 - ibid, p. 54.

9 - بيوض إنعام، **الترجمة الأدبية مشاكل وحلول** (الجزائر: الفارابي، ANEP. 2003)، ص 118.

10 - Jakobson Roman, *On Linguistic aspects of translation* (Cambridge, Massachusetts : Harvard University Press, 1959), p. 233.

اللّغات في كلّ الوضعيات الثقافية. ويسوق مثالًا لذلك بصعوبة ترجمة كلمة «جُبن» عندما يتعلّق الأمر بأنواعٍ منه تختلف بين ما هو معروفٌ لدى الإنجليز، أو الروس، أو الفرنسيين.

ويمكن أن نسوق من جانبنا العديد من الأمثلة في اللّغة العربية، كترجمة عبارة «السلام عليكم ورحمة الله» إلى لغاتٍ أخرى، فهل يمكن أن نعدّ عبارة (Let peace be on you) مكافئةً لها في الإنجليزية؟ أو كترجمة أنواع التمر كما يعرفه العرب، أو أسماء الناقة وصفاتها الّتي تقارب الثمانين اسمًا أو تزيد[11].

3 - مقاربة نايدا (التكافؤ الدينامي):

من المدخل ذاته، انبرى لسانيٌّ آخر هو يوجين نايدا لمعالجة إشكالية التكافؤ بين اللّغات، فصاغ مقاربةً عرفت بمقاربة التكافؤ الدينامي. والتكافؤ في نظره هدف الترجمة ومنتهى غايتها، فبحسب استجابة متلقي الرسالة في اللّغة الوصل، ومدى تطابقها مع استجابة المتلقي في اللّغة الأصل، يتحقّق التكافؤ. وعلى الرغم من استحالة التطابق التّام بين الاستجابتين بسبب اختلاف السياق الثقافي والتاريخي بين المجتمعات اللّغوية، يبقى التكافؤ ممكنًا، وعلى المترجم أن يبلغ أعلى درجاته وإلاّ وصفت ترجمته بالفاشلة. وها هو نصّ التعريف كاملًا:

"Dynamic equivalence is therefore to be defined in terms of the degree to which the receptors of the message in the receptor language respond to it in substantially the same manner as the receptors in the source language. This response can never be identical, for the cultural and historical settings are too different, but there should be a high degree of equivalence of response, or the translation will have failed to accomplish its purpose"[12].

يقابل هذا النمط من التكافؤ مفهومٌ آخر هو «التوافق الشكلي»، أو الترجمة الحرفية الّتي تهتم بنقل الأسلوب وشكل النّص، ومنه ترسّخت ثنائية الشكل والمضمون، وأهل المصدر وأهل الهدف؛ لتصبح معايير فيما بعد لتصنيف الرؤى والنظريات المتعلّقة بالترجمة وبمناهجها. والمترجم الكفء في نظر نايدا، هو ذلك الّذي يجتهد في تحصيل ما يسمّيه بـ«أقرب مكافئٍ طبيعي» (The closest natural equivalent)، فالهدف هو نقل الرسالة وإحداث الأثر نفسه وليس المحافظة على الشكل اللغوي، بل يجب في الكثير من الأحيان تغيير الشكل تمامًا كي نحافظ على المعنى.

دعمًا لرأيه، يضرب لنا نايدا مثالًا بعبارةٍ من الإنجيل هي: "demon-possessed" (استحوذ عليه الشيطان)، وهي عبارةٌ يمكن أن نتجادل بشأنها ونعتبر: "mentally distressed" (مضطربٌ عقليًا) مكافئةً لها في الإنجليزية الحديثة، لكنّها ترجمةٌ لا تعدو أن تكون تكييفًا ثقافيًّا معاصرًا لا يمتّ بصلة إلى المعنى الحقيقي المرتبط بالثقافة الإنجيلية.

ويجدر أن نشير هنا إلى أنّ نايدا قد عدّل في بحوثٍ لاحقة من آرائه مستبدلًا مصطلح «التكافؤ الدينامي» بـ«التكافؤ الوظيفي»، وبذلك أصبح التركيز منصبًّا على نقل الوظيفة اللسانية للنّص أثناء ترجمته، واتّجهت مقاربته شيئًا فشيئًا نحو اللسانيات الوظيفية.

4 - مقاربة كاتفورد (اللسانيات التطبيقية):

اهتم كاتفورد بالترجمة من مدخل اللسانيات التطبيقية، وهو فرعٌ يهتم بدراسة التطبيقات الفعلية للسان أكثر من اهتمامه بالنظرية العامة للّغة. ولقد دافع عن اعتبار الترجمة فرعًا من اللسانيات المقارنة، أمّا اللسانيات التطبيقية فهي في نظره مجّرد منهجٍ لدراسة الترجمة. كما أكّد كاتفورد على وجوب قيام أيّ نظريةٍ للترجمة على نظريةٍ للمعنى، أي تصورٍ

11 - بيوض، ص 109.

12 - Eugene A. Nida, R. Taber Charles, *The Theory and Practice of Translation* (Brill, Leiden: United Bible Society by E. J. 1969), p. 22.

للمكوّنات الّتي تصنع المعنى وتحدّده، وهو في نظره معطى يرتبط باللّغة ويختلف باختلافها، فالنّص الروسي مثلًا، يحمل معانٍ ترتبط باللّغة الروسية فقط، كما أنّ مكافئه الإنجليزي ترتبط معانيه بالإنجليزية:

"Meaning, in our view, is a property of a language. An SL text has an SL meaning, and a TL text has a TL meaning—a Russian text, for instance, has a Russian meaning (as well as Russian phonology/graphology, grammar and lexis), and an equivalent English text has an English meaning"[13].

ويتحدّد المعنى من منظور كاتفورد وفقًا لعلاقاتٍ شكلية، كالعلاقات بين الكلمات ضمن نظامٍ معيّن، أو بين الوحدات النحوية، وعلاقاتٍ أخرى سياقية تتعلّق بالكلمات والوحدات النحوية نفسها، لكن في صلتها بوضعياتٍ وبظروفٍ متغيرة. وبما أنّ التطابق الشكلي بين اللّغات أمرٌ نادر الحدوث، فإنّ دقيق المعنى كثيرًا ما يختلف عندما نترجم من لغةٍ إلى أخرى.

دعمًا لوجهة نظره، استدلّ كاتفورد بمثالٍ من اللّغة العربية يتعلّق بالمثنى في كلمة «كتابيْن» وترجمتها إلى الإنجليزية Books، وهي ترجمةٌ غير دقيقة؛ لأنّها تعبّر عادةً عن الجمع من ثلاثة فما فوق.

ومثلما يندر حدوث التوافق الشكلي بين اللّغات، فكذلك يختلف المعنى السياقي من لغةٍ إلى أخرى، وإن بدا للوهلة الأولى متطابقًا، ومردّ ذلك إلى متغيرات كثيرة، سواءً تلك المتعلّقة بالمتكلم، أو بالمتلقي، أو بالظروف والوضعيات المحيطة بالرسالة.

5 - مقاربة جان دوليل (اللسانيات النّصية):

مع بداية ثمانينيات القرن الماضي تركّزت صلة اللسانيات بالترجمة بفرعٍ واحد منها هو اللسانيات النّصية. ويجدر أن نُنبّه إلى أنّ هذا الفرع يتداخل مع تحليل الخطاب، وإن كانا مختلفين نظريًا، وأنّ العديد من الباحثين، خصوصًا في مجال الدراسات الترجمية، لا يقيمون الفرق بينهما. ويذهب أنصار هذه المقاربة إلى أنّ تحليل النّص خطوةٌ لازمةٌ قبل كلّ ترجمة، لا سيما ما تعلّق بتحديد نمطه ونوعه باعتبار ذلك السبيل الأنسب للتحقّق من الفهم الصحيح لأفكار النّص. ويُعدّ جان دوليل من أبرز من دافع عن إمكانية تدريس الترجمة بالاعتماد على تحليل النّص. بل أبعد من ذلك، يُفيد التحليل من وجهة نظره في فهم وإدراك عملية الترجمة أفضل ممّا تسمح به اللسانيات العامة التقليدية[14]. فالمترجم ملزمٌ حسبه، بدراسة كلّ ما يتضمّنه النّص، أو يحيط به، وباعتماد منهج التفسير والتأويل شرط الالتزام بضوابط محدّدة إلى أن يتمكّن من الإحاطة بالمعنى. كما يلزمه أيضًا دراسة مختلف الصور البيانية بوصفها عناصر أسلوبية تُبرز أيديولوجية الكاتب ووجهة نظره الثقافية.

من المفيد أيضًا أن نشير إلى مقاربةٍ أخرى تندرج ضمن النزعة النّصية في دراسة الترجمة، وهي مقاربة روبرت لاروز[15] الّتي انطلق فيها من دراسةٍ مقارنة عالجت العديد من الآراء حول الترجمة؛ ليصوغ في النهاية نموذجه الخاص المستوحى من أعمال دوبوغراند وجوليان هاوز[16]. وقد قسّم لاروز بنية النّصوص إلى قسمين هما: البنية العليا والكبرى مع بعضهما، وتضمّ النظام السردي والحجاجي، ووظيفة النّص، والنظام الموضوعاتي، ثمّ البنية الصغرى الّتي تحيل إلى «شكل التعبير» بمستوياته التحليلية الثلاثة: المورفولوجية، والنحوية، والتركيبية، أضف إليها «شكل المضمون» بمستوياته التحليلية الأربعة: الخطية، والمورفولوجية، والنحوية، والتركيبية.[17].

13 - Catford john, *A linguistic theory of translation* (London: Oxford University Press, 1965), p. 20.

14 - Delisle Jean, *L'analyse du discours comme méthode de traduction* (Ottawa :Université d'Ottawa, 1984), p.10.

15 - Robert Larose.

16 - Debeaugrand, Juliane House.

17 - Mathieu Guidère, *Introduction à la traductologie, penser la traduction: Demain, Aujourd'hui* (Bruxelles : De Boeck, 2004), p.57.

تتأكّد أهمية المقاربة النّصية في التنظير للترجمة وممارستها عندما يصطدم المترجم بشيءٍ من الإبهام والغموض الناتج عن فكرةٍ مضمرة يفترض المؤلف معرفة المتلقي بها، فيتعذّر عليه: أي على المترجم، فهمها إلّا بالبحث في عوامل خارجةٍ عن النّص قد تكون أحيانًا شخصية، أو تاريخية، أو سياسية، أو غيرها من السياقات المؤثّرة في الفهم.

ثانيًا: نقد المقاربات اللسانية

يتّضح لنا بعد ما تقدّم من استعراضٍ لأهم المقاربات اللسانية، أنّ الصلة الّتي تربط علوم اللسان بالترجمة معقّدة ومركّبة، وأنّ الحديث عن اللسانيات باعتبارها مرتكزًا للتقعيد للترجمة يستلزم تحديد وتوضيح أيّ لسانياتٍ نقصد، ولا نقصد هنا الفروع فحسب، من لسانياتٍ تقابلية، وتطبيقية، ونصّية، وإنّما النزعة الفلسفية والاتجاهات المختلفة الّتي عرفها هذا العلم منذ نشأته، من البنيوية إلى الوظيفية، وصولًا إلى التوليدية والتداولية. لكنّ معالجةً بهذا القدر من الشمول والاتساع تتجاوز قدرتنا في هذا البحث الموجز: لذا سنركّز على معالجة أصل الإشكالية الّتي نراها متعلقةً باللسانيات البنيوية، واستمرار تأثيرها في منهج البحث في الترجمة.

إنّ المفارقة الّتي يصعب فهمها هي عدم اهتمام اللسانيات في بدايتها بالترجمة قبل أن تبلغ مرحلةً يمكن وصفها بالتعصب تجاه تبعيتها لها. ويبدو أنّ هذه الحقيقة التاريخية؛ أي ضعف الاهتمام ثمّ تناول قضايا الترجمة على أنّها مسائل ثانوية يُستأنس بها من أجل البحث في قضايا اللسان دون النظر فيما يمكن أن تضيفه الترجمة إلى اللسانيات، كلّ ذلك قد أثّر في العلاقة بين الحقلين وسبّب فتورًا ثمّ تنافرًا بين المشتغلين فيهما.

يقودنا هذا إلى تناول أهم الانتقادات وأوجه القصور في بعض المقاربات اللسانية السالف ذكرها، قبل أن نفصّل في الأسئلة الجوهرية الّتي أدّت إلى الاعتقاد بمحدودية علوم اللسان في الإحاطة بالترجمة ومسائلها. ولنركّز على أكثرها تأثيرًا وانتشارًا، وهي مقاربة الأسلوبية المقارنة الّتي تحوّل تفوقها وأسبقيتها في نمذجة عملية الترجمة، وتصور آلياتٍ لها إلى مذمةٍ وعنصر قدحٍ فيها بسبب انحصارها في المنهج الوصفي، ممّا جعل نتائجها لا تعدو أن تكون مجرّد وصفٍ يقوم على المقارنة بين خصائص اللّغتين الفرنسية والإنجليزية، وإبراز الاختلافات التراكيبية بينهما؛ أي وصفًا لعملية الترجمة وليس فهمًا وتصورًا منهجيًّا لآلياتها. وقد تركّزت معظم الانتقادات الموجّهة لهذه المقاربة حول الأساليب السبعة للترجمة، فالاقتراض مثلًا، وبالاستناد إلى تعريف فيني وداربلني نفسيهما، ليس بترجمة، بل هو مثلما سبق أن ذكرنا، كلمةٌ تُقترض من لغةٍ أخرى دون ترجمتها. كما انتقد لادميرال تعريفهما لأسلوب «التكافؤ»، معتبرًا إيّاه: «مفهومًا واسعًا ينطبق على عملية الترجمة برمّتها»[18]، أضف إلى ذلك تداخل مفهومه مع أسلوب «التصرف» بحيث تتقارب الحدود الفاصلة بينهما؛ لتلتقي في متوازيات مشتركة[19].

وقد بلغت الانتقادات درجة إسقاط وصف الأسلوب عن المفاهيم السبعة الّتي تقوم عليها المقاربة، واعتبارها مجرّد تصنيفاتٍ لنتائجٍ مصدرها المقارنة بين لغتين. حيث اعتبرها دوليل في دراسةٍ نقدية له، بمنزلة البطاقات الّتي يتلخّص دورها في تبيان التحوّلات البنيوية الناتجة عن العملية الترجمية، أو انعدامها أحيانًا. وأنّ الاعتقاد بأنّها تسهم في إنشاء مكافئاتٍ حسب السياق، يُماثل الخلط بين النتيجة والسبب. ومن ثمّ، فإنّ توظيف مصطلح «الأسلوب» في مقاربة فيني وداربلني يُعدّ غير مناسبٍ، بل هو مضلّل. ثمّ يضيف بأنّ الخطأ الّذي اقترفه الباحثان يتمثّل في محاولة صياغة قواعدٍ مبدئية، انطلاقًا من ملاحظاتٍ هي في الواقع لاحقةٌ لعملية الترجمة وليست سابقةً لها[20].

18 - لادميرال، نقلًا عن بيوض، ص 105.

19 - المرجع نفسه، ص 79.

20 - - Delisle Jean, « La méthode comparative: Son utilité, Ses limites », *Academia*, Retrieved 01/10/2020, from: https://www.academia.edu/5981800/La_m%C3%A9thode_comparative_son_utilit%C3%A9_ses_limites

أمّا مقاربة التكافؤ الدينامي لنايدا، وهي تصورٌ للترجمة لاق قبولًا أوّليًّا ضمن إطارٍ ضيّق يتعلّق بترجمة نصوص الإنجيل، سرعان ما قوبلت بالانتقاد والرفض، لا سيما من قِبل ميشونيك، وهو صاحب مقاربةٍ مغايرة سنجعلها نموذجًا ومرتكزًا للإجابة عن إشكالية هذا البحث، حيث رأى فيها تكريسًا لثنائيةٍ مغالطة ومخادعة هي ثنائية الشكل والمضمون التي تفضي إلى هيمنة ثقافة النّص الوصل، وغلبة إيديولوجية المترجم، كما أنّها ارتكزت على تعريفٍ خاطئ للمعنى عندما ربطته باستجابة القارئ. هذا ما شرحه ميشونيك في مقالٍ له قدّم به لترجمة Les cinq rouleaux، وهو نقدٌ بدا فيه واضحًا أنّ المقصود به نايدا، حيث يقول: «إنّ ترجمة نصوصٍ من الإنجيل يعني إدماج اللغة الشعرية الحديثة في لغة الإنجيل التي نكّرتها قرونٌ من العقلانية في اللّغة الفرنسية[...] فالتصرف في هذا المقام يتحوّل إلى دعوةٍ لمبادئ الإنجيل. إنّ اللسانيات السلوكية قد أصبحت رسولًا مبتعثًا، أمّا المعنى ففُهم على أنّه استجابة المتلقي وخيار الجمهور، وكلّها أصبحت أجزاء من ترجماتٍ لنسخٍ موجّهة للشعوب المتخلّفة بلغةٍ إنجليزية حديثة. إنّه خليطٌ من اللسانيات والأيديولوجيا»[21].

علاوةً على هذه الانتقادات، يجب ألاّ نغفل عن حقيقةٍ جوهرية مفادها أنّ الهوة تتّسع بين الترجمة واللسانيات عندما يتعلّق الأمر بالترجمة الأدبية. فإذا كانت بعض الآليات والأساليب المعتمدة على اللسانيات فعّالةً في مجال الترجمة التقنية أو البراغماتية البسيطة، فإنّها تصبح قاصرةً بل عديمة الفعالية عندما يتعلّق الأمر بترجمة الأدب بوجدانيته وأحاسيسه. بل إنّ مترجمًا وفيلسوفًا مثل والتر بينجامين[22] لا يعتبر العمل الأدبي مجرّد رسالةٍ يبعث بها مرسلٌ إلى متلقي، فالأدب ليس عمليةً اتصاليةً في المقام الأول؛ لذا وجب ألّا تنحصر ترجمته في فكّ الرموز ثمّ إعادة الترميز في لغةٍ أخرى، بل المطلوب هو ترجمة الصبغة الأدبية[23].

أضف إلى كلّ هذه المآخذ، مجموع التطورات والتغيرات الحاصلة الّتي كرّست شيئًا فشيئًا الانتقال من الكلمة إلى النّص كوحدةٍ أوسع وأشمل، بل إلى مجموعةٍ من النّصوص، إذا أخذنا بعين الاعتبار تأثير ظاهرة التناص على أفكار وأسلوب الكاتب، ممّا يستلزم معالجة إشكاليات الترجمة ضمن نظريةٍ أعمّ وأشمل.

ثالثًا: استشكال الجوهر والسير بين المنعطفات

من المسلّم به أنّ العلم يبتدأ بالسؤال والاستشكال، وكثيرًا ما تكون الأسئلة الجوهرية الّتي تبدو للوهلة الأولى بسيطةً وسطحية، سببًا في استحداث نقطة انعطافٍ يتغيّر عندها مسار البحث ليسلك طريقًا مغايرًا. غير أنّ الخطر كلّه يكمن في النزعة إلى القطيعة التّامة مع ما سبق اعتباره مسارًا خاطئًا كان من الواجب تفاديه. هذا بالضبط ما يمكن أن توصف به العلاقة بين اللسانيات والترجمة، فقد أسهمت فلسفة الترجمة والأسئلة الجوهرية الّتي طرحها روّادها في اتساع الهوة بين الحقلين، أو بالأحرى لنقُل أنّ السبب في ذلك كان الأجوبة الّتي انتهى إليها بعض المتحمّسين لاستقلالية «علم الترجمة» وفهمهم وتفسيراتهم لآراء غيرهم من المنظرين. ومن أهم الأسئلة الّتي أسهمت في انعطاف مسار البحث، السؤال حول إمكانية الترجمة والهدف منها، ثمّ ماذا يجب أن نترجم؟ هل نترجم المعنى أم الأسلوب؟ هل الترجمة عمليةٌ اتصالية؟ كيف نحقّق الأمانة في النقل؟

يذهب موريس بارنيه إلى أنّ النزاع بين اللسانيات والترجمة لم ينشأ بسبب نوايا سيئة يضمرها، أو يبديها أنصار المدرستين، بقدر ما هو متمخضٌ عن حقيقة إبستمولوجية ينكرها هؤلاء مفادها أنّ نظرية الترجمة ترتبط بلسانيات الكلام، أمّا اللسانيات عمومًا فما زالت، ما عدا استثناءاتٍ قليلة، تدرس اللسان فحسب[24]. ومع ذلك يُقرّ بارنيه بعدم

21 - Henri Meschonnic, *Les cinq rouleaux* (Paris : NRF Gallimard, 1970), p. 11.

22 - Walter Benjamin.

23 - Fournier-Guillemette, Marie-Pierre, « La traductologie: entre littérature et linguistique, Postures », *Interdisciplinarités / Penser la bibliothèque*, n°13 (2011). Retrieved 01/08/2020 from: http://revuepostures.com/fr/articles/fournier-guillemette-13

24 - Pergnier, op.cit., p. 7.

اهتمام البحوث اللسانية بشكلٍ عام بإشكاليات الترجمة، ممّا كرّس استخدام مقارباتٍ غير ملائمة سواء على المستوى التطبيقي أم التنظيري؛ ليعود الضرر على اللسانيات في المقام الأول.

وضمن التوجه نفسه، تذهب ماريفون بواسو إلى أنّ هناك أسبابًا داخلية تتعلّق باللسانيات نفسها، وخصوصًا باللسانيات التقابلية عند توظيفها في تعليم الترجمة، حيث أنتجت منهجيةً تطبيقيةً قائمة على مجموعة من «الوصفات الجاهزة» وليس مقاربةً منطقية في تحليل النّصوص[25]. كما تضفي بواسو طابعًا محليًا على إشكالية الصلة الّتي تربط اللسانيات بالترجمة بقولها: إنّ اللسانيات الوظيفية والتداولية ذات البعد الأنجلوساكسوني لم تؤثّرا كثيرًا في اللسانيات المطبّقة في فرنسا، معزّزة طرحها برأي فرانسوا راستيه الداعي إلى إخراج اللسانيات من المركزية الأوروبية (Eurocentrisme)، ممّا يُستنتج منه أنّ اعتماد الاتجاهين المذكورين أنسب وأقدر على معالجة قضايا الترجمة.

هذا ما تعلّق بالأسباب المرتبطة بمنهجية اللسانيات وبنائها الداخلي، غير أنّه من الواضح أيضًا أنّ المنعطف الثقافي الّذي حصل في الثمانينيات؛ أي غدو الدراسات الثقافية مرتكزًا لتفسير الظواهر الإنسانية والاجتماعية، كان الوازع الرئيس الّذي سرّع في استقلالية «علم الترجمة» عن اللسانيات.

لكنّنا نعتقد أنّ هذا التحوّل وعلى الرغم من تعزيزه لانفصال نظرية الترجمة، فإنّه يحمل في طياته دليل انفتاحٍ لعلوم اللسان وقدرتها على التطور والتأقلم، فالتأسيس لهذه المرحلة بدأ بفضل مقاربةٍ صاغتها لسانيةٌ بارزة هي ماري سنيل هورنبي، اقترحت من خلالها اعتماد مقاربةٍ مركّبة لا تتجاهل اللسانيات والأدب وإنّما تحاول تجاوز الخلافات بينهما حول الترجمة:

"Up to the mid-1980s, (…) the study of translation was still widely seen as a concern of either linguistics or literary studies, and my "integrated approach" set out to overcome the divisions between them and to present Translation Studies as an independent discipline"[26].

لكنّ دور الدراسات الثقافية في توجيه دفّة البحث في مسائل الترجمة ما فتئ ينحسر، وقد تأكّدت محدودية هذا الطرح شيئًا فشيئًا؛ لتبرز اللسانيات من جديد وتنعطف الترجمة منعطفًا آخر راجعةً إلى نقطة البداية. والسبب في ذلك أنّ علوم اللسان بدورها عرفت تحوّلاتٍ ومنعطفاتٍ عديدة منذ نشأتها، لعلّ أبرزها ما يعرف بالمنعطف التداولي، وهو تحوّلٌ عزّز من شموليتها وزادها قدرةً وكفاءةً في معالجة قضايا المعنى، والسياق، والأثر، وهي كلّها إشكالياتٌ رئيسة في الترجمة.

إلاّ أنّ الملاحظ هو استمرار تأثير اللسانيات البنيوية التقليدية المنسوبة إلى سوسير، واعتمادها مرتكزًا لفهم الترجمة وللبحث في آلياتها على الرغم من كلّ التغيرات الجوهرية التي عرفها الدرس اللساني. فما عساه يكون السبب في ذلك؟ ولم يستمر هذا الالتباس والغموض الّذي يشوب العلاقة بين علوم اللسان والترجمة؟

رابعًا: ماذا لو كانت المعضلة هي البنيوية؟

لطالما وُصف سوسير بأنّه أبو البنيوية وبأنّ اللسانيات الّتي أسّس لها كانت سندًا لهذه النزعة الفلسفية الّتي أثّرت على مناهج البحث في العلوم الإنسانية قاطبةً خلال القرن الماضي، وهي نزعةٌ مستحكمةٌ مؤثّرةٌ في الكثير من الرؤى والتفسيرات. لكن، هل كانت لسانيات سوسير فعلًا بنيوية؟ هل فُهمت نظريته حقّ الفهم، أم أنّها أُوّلت ووُظّفت خلافًا لمقاصدها؟ وما أثر ذلك على دراسة الترجمة والتنظير لها؟

25 - Maryvonne Boisseau, « De la traductologie aux sciences de la traduction », *Revue française de linguistique appliquée*, vol. XXI (2016), pp. 9-21.

26 - See, Mary Snell-Hornby, *The Turns of Translation Studies New paradigms or shifting viewpoints?* (Amesterdam, Philadelphia: University of Vienna, 2006).

من المعلوم أنّ البنيوية مذهبٌ عابرٌ للتخصصات يقوم على مبدأ مفاده أنّ العلاقات الرابطة بين مختلف العناصر والمكوّنات تتفاعل مع بعضها البعض لتُشكّل بنيةً مستقلة، وأنّ التركيز يجب أن ينصبّ على دراسة البنية بأكملها لا على العناصر المشكّلة لها باعتبار أنّها عديمة التأثير ما لم تتفاعل مع غيرها.

قد يبدو هذا المفهوم مناسبًا لدراسة الترجمة باعتبارها تفاعلًا بين عناصر عديدة، ليست اللّغة سوى عنصرٍ واحدٍ من بينها، لكنّ المفارقة قد تكمن في كون التفكير البنيوي سببًا غير مباشر في الاستغلاق المنهجي، ذلك لأنّه انتهى إلى الفصل بين الظواهر والتعامل مع كلّ ظاهرةٍ على حدة، وعلى أنّها كيانٌ منفصل، بل انتهى إلى «موت الذات الفاعلة»؛ أي «موت المؤلف»[27]، وبالنتيجة «موت المترجم»، ممّا ينفي عنه أيّ قدرةٍ على التأثير في النّص وفي القارئ الّذي يحوز السلطة المطلقة في تأويل ما يقرأه وله كامل الحرية في اكتشاف النّص دونما حاجةٍ إلى المؤلف؛ أي لا وجود إلّا للنّص، «ولا شيء خارج النّص» مثلما ذهب إليه دريدا.

هل هذا هو الإرث الّذي خلّفته لنا «اللسانيات البنيوية»، أو بالأحرى لسانيات سوسير؟

يجيبنا هنري ميشونيك[28] بكلّ وضوح: لا، بل هذه مغالطاتٌ وتفسيراتٌ خاطئة لنظرية سوسير، وكلّ ما درّسه أنصار النزعة البنيوية في القرن العشرين وما يواصل تدريسه كلّ اللسانيين وليس بعضهم، هو نقيض ما قصده سوسير وليس استمرارًا لفكره المفضي إلى البنيوية. فالبنيوية منفصلةٌ بانتظام عمّا كان سوسير يعتقده تفاعلًا بين اللّغة والكلام.[29]

يجب ألاّ ننسى ابتداءً، أنّ أعمال سوسير ومحاضراته قد حرّرت ونشرت بعد موته؛ لذا من الطبيعي أن توصف بأنّها تفسيراتٌ وفهومٌ شخصية قد لا تكون مطابقةً بالضرورة لحقيقة أفكاره. وينبّهنا ميشونيك، الّذي راح يعدّد مغالطات البنيوية مبرزًا تناقضاتها الجذرية مع آراء مبتكر اللسانيات، إلى أنّ هذا الأخير لم يستخدم إطلاقًا مصطلح «البنية» structure بل وظّف مصطلح «النظام»، أو «النسق» système الّذي يعدّ مفهومًا ديناميًا عكس البنية، المفهومٌ الشكلي ولا تاريخاني. ثمّ إنّ سوسير يعتمد نُظميةً استنتاجية في تصوره لنظرية اللّغة، بينما أفضت البنيوية إلى التأسيس لعلومٍ وصفية للغة. أضف إلى ذلك، أنّ الوحدة: لسان-كلام هي عند سوسير كلٌّ مركب يُنتج لنا الخطاب، أمّا الفكر البنيوي فقد أنتج تفريعًا ثنائيًا بين اللسان والكلام. كما أنّ الدليل Signe عنده اعتباطيٌ تمامًا وذو طبيعةٍ تاريخانية، بينما تنظر البنيوية إلى «الاعتباطي» على أنّه «توافقي».

بالارتكاز على هذا النقد المؤسِّس، وبعيدًا عن الاستغلاق والنزعة الأكاديمية الصارمة الّتي تنصب الحواجز بين العلوم بهدف حصرها وتصنيفها، نسج هنري ميشونيك رؤيةً كلّية جامعًا ضمنها اللّغة، والأدب، والترجمة، ومسديًا لهذه الأخيرة مكانةً مهمةً تجعل منها حجر الأساس في بناء نظريةٍ للغة.

إنّ «شعرية الترجمة»، أو بالأحرى «شعرية الفعل الترجمي» - فالمقاربة تعالج الترجمة باعتبارها فعلًا ونشاطًا لا باعتبارها منتوجًا - هي البديل عن التأسيس لـ«علم الترجمة»؛ لِما يُوفّر ذلك من إمكانياتٍ ومداخل ومخارج منهجية تتجاوز الفكر الثنائي المغلق الّذي يحشر الترجمة ككل في زاويةٍ النقاشُ فيها منحصرٌ بين لزوم ضمّها إلى اللسانيات، أو دراستها ضمن الأدب المقارن، بين اعتبارها فنًا أو علمًا. وبالتبع أيضًا، يُقيّد المترجم فيُخيّره بين طريقين لا ثالث لهما: إمّا المحافظة على المضمون أو المحافظة على الشكل، وإمّا الحرية في النقل أو الحرفية، الأمانة أو الخيانة...

يذكر ميشونيك ثلاثة أسبابٍ رئيسة تدفع إلى التأسيس لـ «شعرية الترجمة»، ونلخصها بدورنا فيما يلي:

27 - وهي نتيجةٌ انتهى إليها رولان بارت في مقالته المشهورة الصادرة في 1967 منتقدًا فيها الربط بين المعنى والسيرة الذاتية للمؤلف، ومدافعًا عن عدم ارتباط فعل الكتابة به.

28 - هنري ميشونيك 1932)Henri Meschonnic-2009) شاعرٌ ولساني ومترجم فرنسي، صاحب نظرية في الأدب والترجمة، خلّف العديد من الكتابات والبحوث والترجمات التي خالف فيها الاتجاهات السائدة.

29 - Meschonnic Henri, *Ethique et politique du traduire* (Paris: Verdier, 2007), p. 65.

- تستلزم الشعرية إدراج الأدب، وبذلك نتفادى مغالطةً كبرى في اللسانيات الحديثة تقضي بالفصل بين اللغة والأدب.
- تُسدي «شعرية الترجمة» للترجمة مكانتها الّتي تليق بها ضمن نظريةٍ شاملةٍ للمجتمع.
- الشعرية تُحصّن الترجمة ضدّ النزعة البنيوية السيميائية الّتي تفصل بين الجوهر والتاريخ.

بفضل هذه الرؤية الشاملة، انتهى ميشونيك إلى نتيجةٍ مفادها أنّ الترجمة مثلها مثل الكتابة: «عملية فوق لسانية تتجاوز «لسانيات المنطوق» الّتي لا يمكن اعتمادها قالبًا تنظيريًّا للترجمة، مثلما لا يمكن الاعتماد على الشعرية الصورية لجاكوبسون».

"Traduire un texte est une activité translinguistique comme l'activité d'écriture même d'un texte, et ne peut pas être théorisé par la linguistique de l'énoncé, ni par la poétique formelle de Jakobson"[30].

وهنا ننبّه الباحث بألّا يتسرع في الاستنتاج فيخطئ، مثلما لاحظناه في بعض الدراسات[31] مصنِّفًا هذه المقاربة ضمن المقاربات الأدبية المستبعدة للسانيات؛ لأنّ المقصود هو تجاوز تلك النظرة البنيوية القاصرة والمغالطة في تضييقها لمجال اللسانيات، فجوهر المشكل يكمن في أنّ علماء اللسان لا يعيرون الأدب أدنى اهتمام في بنائهم النظري ولا يصغون لما يقوله؛ أي أنّ: «لسانيات الترجمة، حسب تعبير ميشونيك، لا تهتم بتاتًا بتأسيس نظريةٍ شاملة للّغة والأدب:

"La linguistique de la traduction ne recherche nullement une théorie d'ensemble du langage et de la littérature"[32].

إمعانًا وتعمّقًا في شرح رؤيته يقول ميشونيك: «إنّ الترجمة تندرج ضمن نظرية النّصوص وتطبيقها، وهي بدورها مندرجةٌ ضمن نظريةٍ متجاوزة للسانيات المنطوق، لكنّها في الوقت نفسه تقوم على التفاعل بينها (شرط ألّا تكون محصورةً في بنيوية الخطاب) وبين نظريةٍ للإيديولوجيا. وبذلك يسهم التطبيق النظري للنّصوص ولشعرية الترجمة في التأسيس لهذه النظرية الشاملة العابرة للسانيات»:

"Traduire un texte se situe dans la pratique et la théorie des textes, qui se situent elles-mêmes dans une théorie translinguistique de l'énonciation. Une théorie translinguistique de l'énonciation consiste dans l'interaction entre une linguistique de l'énonciation (non enfermée dans une immanence structurale au discours) et une théorie de l'idéologie. La pratique théorique des textes, la pratique théorique de la poétique de la traduction contribuent à y travailler"[33].

التجاوز لا يعني التجاهل والتغافل؛ أي أنّ تجاوز اللسانيات من أجل التأسيس لنظريةٍ للترجمة لا يعني البتة عدم التوسل بها، وإنّما عدم الاكتفاء بدورها. لكنّ المطلوب ليس مجرّد الانفتاح على حقولٍ أخرى من العلوم الإنسانية والاجتماعية لتقوية المرتكز النظري لـ«علم الترجمة» ثمّ إعلانه تخصصًا مستقلًا، وإنّما ينبغي أوّلًا تصحيح مسار اللسانيات وإعادة فهمها من جديد بعيدًا عن النزعة البنيوية المغالطة، ثمّ بناء نظريةٍ شاملة للغة والتأسيس لـ «شعرية الفعل الترجمي»، فمن خلالها فقط يمكن الإحاطة بقضايا الترجمة؛ لأنّ: «التفكير في اللّغة والترجمة دون شعرية، لا يعدو أن

30 - Henri Meschonnic, « Propositions pour une poétique de la traduction », *Langages*, no. 28 (1972), pp. 49-54.

31 - صنّف ماتيو غيدار مقاربة «شعرية الترجمة» ضمن المقاربة الأدبية، وهو حكمٌ لا يمكن وصفه بالخاطئ تمامًا، لكنّه مختزلٌ ولا ينظر إلى الجانب الشمولي في المقاربة.

32 - Meschonnic, op.cit., p. 50.

33 - ibid., p. 50.

يكون مجرّد نزعةٍ أكاديمية علمية. إنّه إصرارٌ أكاديمي على إبقاء ازدواجية الدليل بكلّ التفرعات الّتي يشهدها. الحرف والروح، والهوية والغيرية»[34].

نتائج البحث

ينسب اللسانيون لأنفسهم الفضل في التنظير لعملية الترجمة وابتكار آلياتٍ لها أخرجتها من اعتبارها فنًا لا يحكمه إلاّ الذوق والموهبة؛ لتصبح نشاطًا علميًّا دقيقًا. غير أنّ المنحة يبدو أنّها انقلبت إلى محنةٍ في أعين أنصار استقلاليّة الترجمة بالنظر إلى عدم تعمّق اللسانيات في تناول الجوانب الفنية الأدبية المؤثّرة في اللّغة. لكنّ لبّ الإشكال لا يتعلّق بمجرد أن تكون «مع أو ضدّ». أي مع انضواء الترجمة تحت راية اللسانيات أو مع استقلاليتها، فالقضية ليست مثلما أسلفنا القول بحثًا في النسب.

من هذا المنطلق، وبعد بحثنا أهمَّ الرؤى والمقاربات، وبالاستناد إلى أكثرها شموليةً في نظرنا وهي مقاربة «شعرية الفعل الترجمي» لميشونيك، فإنّنا نخرج بالنتائج التالية:

- لا يمكن أن تبقى الترجمة وقضاياها محلّ نزاعٍ دائم، ففهم الصلة القائمة بينها وبين اللسانيات أصبح ضروريًّا أكثر من أيّ وقتٍ مضى حتى نضع حدًّا للضرر المترتب عن هذه الخصومة المفتعلة. لكن يجب ألاّ ينقلب الأمر إلى عمليةٍ تقنيةٍ بليدة تهدف إلى رسم الحدود وإقامة الأسوار بشكلٍ يُفضي إلى بتر حبل الوصل بين حقلين معرفيين لا شك أنّهما متداخلان، فالمسألة هنا، وسنلجأ مرةً أخرى للتشبيه، لا تتعلّق بفض نزاعٍ حدودي بين دولتين متحاربتين.
- لا يمكن الوصول إلى نظريةٍ للترجمة دون الاعتماد على تخصصاتٍ وحقولٍ مختلفة في طليعتها اللسانيات. بل إنّ بعض المقاربات الموصوفة بترسيخها للارتباط التّام بين علوم اللسان والترجمة، كانت في الواقع متعدّدة التخصصات، مثل «الأسلوبية المقارنة» الّتي وظّفت مفاهيم علم النفس.
- تتّسم مقاربة «شعرية الفعل الترجمي» لميشونيك باستنادها إلى نظريةٍ شاملةٍ في اللغة والأدب، فهي تقوم على رفض النزعة الأكاديمية الجامدة والمستغلقة، كما أنّها تجمع بين النظرية والتطبيق، والنقد والتأسيس، وتوظيف مفاهيم الشفوية والإيقاع، والصبغة الأدبية، وهي كلّها مرتبطةٌ بالمعنى، لذا وجب على المترجم اكتشافها في النّص ثمّ العمل على نقلها إلى اللغة الوصل. ومحصّلة الأمر، أنّه لا سبيل إلى دراسة الترجمة إلاّ في إطار نظريةٍ عامة للغة، وضمن استرسالٍ وتفاعلٍ بينها وبين الفن والعلم، والتنظير والممارسة، والأخلاقية والشعرية.
- علاوةً على الدعوة إلى إدراج هذه المفاهيم الجديدة ضمن نظرية الترجمة، وفّر نقد ميشونيك للبنيوية ولاستحواذها على اللسانيات الّتي أنشأها سوسير، حلولًا ومخارج تسمح بتجاوز الثنائيات المغلقة مثل: المعنى والشكل، النظرية والتطبيق، العلم والفن. فالمشكلة إذن ليست في محدودية اللسانيات وإنّما فيما أسماه ميشونيك بـ»لسانيات الترجمة»، وهو فهمٌ مغلوطٌ ومبتورٌ لا يندرج ضمن نظريةٍ عامة للغة.
- يجب ألاّ نتعامل بمبدأ القطيعة التّامة مع النظريات المؤسِّسة مهما كانت جوانب القصور فيها. فالترجمة، لا سيما الأدبية منها، عمليةٌ مركبة ومتغيّرة، وهي بلا ريب نشاطٌ فنيٌ يرتبط بالوجدان والجماليات، ومن ثمّ كان طبيعيًّا أن تتقلّب الرؤى بشأنها وتتبدّل بحسب المتغيرات المختلفة وتطور الفكر الإنساني عمومًا. أمّا الثابت في الترجمة فهو استمرارها وأهميتها المتزايدة وكونها مخبرًا للبحث في اللغة، في عالميتها وخصوصيتها، وبذلك تصبح، أي الترجمة، كفيلةً بتغيير تصوّرنا وممارستنا للغة بشكل جذري.

34 - Meschonnic, *Ethique et politique du traduire*, op.cit., p. 82.

- على الرغم من معارضة ميشونيك الشديدة لاعتبار الترجمة علمًا؛ كون مجرد إطلاق هذه التسمية سيعود بالضرر على منهجية البحث فيها، إلاّ أنّنا نعتقد بأنّ جوهر المشكل لا يتعلّق بالمسمى. أضف إلى ذلك، أنّه لا تناقض بين التأسيس لـ«علم الترجمة» علمًا مستقلًا وكونه مرتبطا باللسانيات، فليس بدعًا أن يكون علمٌ معيّن على صلةٍ بعلومٍ أخرى ينهل منها ويوظّفها. ومن المخارج الممكنة وصف دراسات الترجمة بالعلم المتقاطع (Science carrefour)، وإن كان هذا الوصف أدبيًّا أكثر منه علميًّا، لكنّه قد يعبّر عن خصوصية الترجمة وتموضعها بين الفن والعلم. كما أنّه لا مشاحة في المصطلح فلنسمِه «علم الترجمة»، ما يهُم هو فعالية النظرية الّتي يستند إليها هذا العلم، ومدى شموليتها وقدرتها على حلّ الإشكاليات، وتقديم إضافاتٍ تمكّن من فهم كُنه الترجمة، وتطوير تعليمها.

وممّا يدعم هذا التوجّه رأي عالم اللسان موريس بارنيه، وقد وجدنا فيه خلاصةً نختم بها هذا البحث، ففيه توفيقٌ بين الاقتناع باستقلالية الترجمة عن اللسانيات، وفي الوقت ذاته تأكيدٌ على ضرورة توسّل الواحدة بالأخرى، حيث يقول: «ليست الترجمة عمليةً تتمّ على اللّغة، وإنّما في اللّغة، وهي بذلك لا تتبع أيّ فرعٍ من اللسانيات، لكنّها يجب أن تحوز على اهتمامها، سواء بالبحث فيها على الصعيد النظري أم التجريبي، وهو بحثٌ تفوق نتائجه مجال الترجمة إلى حدٍّ بعيد»[35].

المراجع

بيوض، إنعام. **الترجمة الأدبية مشاكل وحلول**. الجزائر: الفارابي، 2003.ANEP.

خطابي، محمد. **لسانيات النص**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006.

عوض، يوسف نور. **علم النّص ونظرية الترجمة**. السعودية: دار الثقة للنشر، 1989.

مونان، جورج. **علم اللغة والترجمة**. ترجمة: أحمد زكريا إبراهيم. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2002.

Boisseau, Maryvonne. « De la traductologie aux sciences de la traduction ». *Revue française de linguistique appliquée*, Vol. XXI (2016).

Catford, John. *A linguistic theory of translation*. London: Oxford University Press, 1965.

Fournier-Guillemette, Marie-Pierre. « La traductologie: entre littérature et linguistique **».** *Interdisciplinarités / Penser la bibliothèque*, n°13 (2011). Retrieved 012020/08/ from: http://revuepostures.com/fr/articles/fournier-guillemette-13

Georges, Mounin. *Les problèmes théoriques de la traduction*. Paris: Gallimard, 1963.

Henri, Meschonnic. *Ethique et politique du traduire*. Paris: Verdier, 2007

_____. *Poétique du traduire*. Paris: Verdier, 1999.

_____. *Les cinq rouleaux*. Paris: NRF, Gallimard, 1970.

_____. « Propositions pour une poétique de la traduction ». *Langages*, No. 28 (1972).

Jean, Delisle. L'analyse du discours comme méthode de traduction. Ottawa : Université d'Ottawa, 1984.

_____. « La méthode comparative. Son utilité, Ses limites ». *Academia*, Retrieved 012020/10/, from: https://www.academia.edu/5981800/La_m%C3%A9thode_comparative_son_utilit%C3%A9_ses_limites

Mathieu, Guidère. *Introduction à la traductologie, penser la traduction: Demain. Aujourd'hui*. Bruxelles: De Boeck, 2004.

Nida, Eugene A, R. Taber Charles. *The Theory and Practice of Translation*. Brill, Leiden: United Bible Society by E. J., 1969.

Pergnier, Maurice. « Traduction et linguistique : sur quelques malentendus **».** *La linguistique*, Vol. 40 (2004).

_____. « Traduction et sociolinguistique **».** *Langages*, n°28 (1972). Retrieved 012020/09/ from: https://www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1972_num_7_28_2100

Roman, Jakobson. *On Linguistic aspects of translation. Cambridge*, Massachusetts: Harvard University Press, 1959.

Snell-Hornby, Mary. *The Turns of Translation Studies New paradigms or shifting viewpoints?*. Amesterdam, Philadelphia: University of Vienna, 2006.

Vinay, Jean-Paul & Jean Darbelnet. *La stylistique comparée du français et de l'anglais*. Paris: Didier, 1958.